الفصل الخامس

الأعلام ومقولة : فن الممكن!

- اوروبا وسياسة (فن الممكن) فى الشرق الأوسط.
- الضمانة الإسرائيلية وتفكيك العالم العربى.
- لماذا يكره الغرب الإسلام؟!
- المهاجرون وفاتورة الحرب الباردة.

obeikandl.com

obeikandl.com

أوروبا وسياسة (فن الممكن) في الشرق الأوسط:

كان صاحب المقدمة (عبد الرحمن بن خلدون) هو أول من شبه الدولة بالإنسان في مراحله العمرية المختلفة، التي تبدأ بالطفولة ثم الصبا والشباب، وانتهاء بمرحلة الهرم والشيخوخة، وحقق بذلك سبقا جعله يتبوأ مقعده في مقدمة علماء السياسة وفلاسفتها.. وبات من حقنا أن نقوم بتوسيع هذه النظرية الخلدونية الشهيرة فنرى تشابها بين سلوك الإنسان وسياسات الدولة والمثال الصارخ على ذلك يأتينا من فرنسا، فوزير الخارجية برنار كوشنير عاش موقفين متناقضين في مناسبة واحدة تكررت – شكلا ومضمونا- في فترتين متباعدتين، وأعني بذلك مجزرة جنين التي ارتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلي في عام ٢٠٠٢ وراح ضحيتها مئات الشهداء من المدنيين الفلسطينيين، ثم مجزرة غزة في عام ٢٠٠٨ وسحقت فيها الدبابات الإسرائيلية عظام نحو ١٣٠٠ فلسطيني نصفهم من الأطفال والنساء وأصابت وجرحت أكثر من خمسة آلاف شخص.

ما يهمني هنا أن برنار كوشنير كان – في المجزرة الأولى يشغل موقع رئيس منظمة "أطباء بلا حدود" واتهم في تصريحاته إسرائيل بإبادة الشعب الفلسطيني، مؤكدا أنها دولة تسحق القانون الدولي الإنساني بنفس الدرجة التي تسحق بها عظام الأبرياء الفلسطينيين..

وفي المجزرة الثانية (أقصد مجزرة غزة) ظللت أبحث عن برنار كوشنير رئيس منظمة أطباء بلا حدود (سابقا) ووزير خارجية فرنسا (حاليا) فهم أجده، وانتظرت تصريحا قويا يدين فيه الإجرام الإسرائيلي كما فعل إبان مجزرة جنين، فلم يحدث، وظل الرجل مختفيا عن عمد لأكثر من ٢٠ يوما ثم تحدث مع زملائه وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي حديثا عقيما انحاز فيه إلى إسرائيل، مؤكدا أنها في موقف الدفاع عن نفسها، ومشيرا إلى أنه (انخلع) قلبه لهذه السيدة الإسرائيلية التي (روعتها!) صواريخ حماس (العبثية!) ولم ينخلع قلبه لمشاهد القتل والتدمير التي طالت البشر

والحجر في غزة في عملية الرصاص المصبوب، التي استخدمت فيها إسرائيل القنابل الفوسفورية المحرمة دوليا..!!

.. السؤال الآن : ماذا حدث للسيد برنار كوشنير، وما هي أسباب (تحوله) مع أن مجزرة غزة لا تختلف في تفاصيلها ومآسيها عن مجزرة جنين إن لم تكن الأكثر ضراوة ووحشية..؟ الإجابة بالطبع هي أن الموقع الأول الذي كان يشغله هو موقع تطوعي، لذلك أطلق لسانه بالحق والواقع صارخا ضد العنف الذي تمارسه إسرائيل بأسلحتها الفتاكة في مواجهة شعب سلاحه الحجارة أو يقل قليلا.. أما موقعه الثاني فهو وزير خارجية فرنسا.. وهنا كان لابد أن يخرس لسانه واضعا في فمه ماء أو دما – لا يهم – مغمضا عينيه ناسيا أن الآلة العسكرية الإسرائيلية هي التي تفتك بالشعب الفلسطيني الأعزل في غزة.

.. والشئ نفسه حدث – ولكن في ظروف مشابهة – مع ميشيل روكار رئيس وزراء فرنسا، الذي كان بين المراقبين الدوليين في الانتخابات الفلسطينية التي فازت فيها حماس، وأشاد بسلامة العملية الانتخابية وسيرها بشكل ديمقراطي وقانوني وكان حديثه متلفزا نقلته الفضائيات والإذاعات وأبرزته الصحف في أوروبا والعالم العربي..!

لكن عندما غضبت إسرائيل على المقاومة الفلسطينية وأرادت إبعادها عن السلطة وشككت في الانتخابات التي أتت بها على رأس الحكومة الفلسطينية.. ظللنا نبحث عن ميشيل روكار ورفاقه من المراقبين الدوليين، فلم نعثر لهم على أثر.. واكتشفنا أن الرجل وضع في فمه ماء وآثر الصمت، خوفا من إغضاب دولته (فرنسا) والدولة العبرية (إسرائيل) أيضا.. وعندما سئل بعد فترة عن تقلبه بين موقفين متناقضين أجاب باقتضاب إنها مقتضيات السياسة!

.. وقبل ذلك بسنوات شاهدت بنفسي واقعة في بروكسل كان بطلها ميشيل جوبير أحد فرسان الخارجية الفرنسية، الذي فوجئنا به –في أحد المؤتمرات– التي

تناقش الحوار العربي- الأوروبي، ينحي باللائمة على فرنسا التي لا تساند الحق الفلسطيني بالطريقة الواجبة، وتنحاز -بشكل دائم - لإسرائيل، وقال إنها بذلك تعرض مصالحها مع الدول العربية للخطر.. وعندما ذكره أحد المشاركين في المؤتمر بتصريحات له معادية للعرب ومنحازة انحيازا كاملا لإسرائيل، كان يطلقها في الهواء سعيدا منتشياً وسائلاً إياه عن سبب هذا التلون في المواقف، فاحمرّ وجه الرجل خجلا وغمغم وهو يهرب بوجهه بعيدا: إنها مقتضيات السياسة.. وفي كل الأحوال، علينا أن نقبل ما تفرضه هذه (المقتضيات السياسية) من اشتراطات.. بل أكثر من هذا أقول علينا أن نتفهم دوافعها ولا نندهش لها، فالسياسة كما كان يقول أستاذنا د. إبراهيم صقر - يرحمه الله أستاذ العلاقات الدولية فى سبعينات القرن الماضى - هي فن الممكن... أقصى الممكن، وما لا يمكن.. لا يمكن! أي أنها حمّالة أوجه، ولكل وجه مبرراته.. وما يؤلمني ويحز في نفسي أننا لا نستدعي هذه الرؤية الواقعية في السياسة عندما يتعلق الأمر بأوروبا، فهناك إصرار يكاد يصل إلى مرحلة العناد على أن نرى فيها ما ليس فيها، ونخلط بين "الواقع" والأمنيات.. فمما لا شك فيه أننا نتمنى منذ زمن أن تحتل أوروبا المكان الشاغر في نظام القطبية الثنائية والذي أصبح نظاما أحادي القطبية - منذ انهيار حائط برلين وتفكك الاتحاد السوفيتى- تحتكر فيه الولايات المتحدة الأمريكية القرار الدولي لحسابها الخاص..

ونود لو أن أوروبا تحدث التوازن المفقود في العلاقات الدولية، وتساعدنا في امتلاك قدر من مرونة الحركة كما كان عليه الحال في زمن القوتين العظميين السابقتين أمريكا والاتحاد السوفيتي. وضمن هذه الأمنيات نتخيل أن أوروبا التي ترتبط معنا في الجغرافيا السياسية بالنظر إلى منطقة حوض البحر المتوسط، وتجاريا عبر برشلونة، ومجموعة ٥+٥، وسياسة الجوار، والاتحاد المتوسطي، ويعنيها بشكل مباشر أمن واستقرار جنوب المتوسط يمكن أن تحقق هذا المعادل الموضوعى الغائب، لكن أوروبا لم تكن في يوم من الأيام عند حسن الظن فيها، ففي مجزرة غزة خرجت علينا عبر جمهورية التشيك التي كانت ترأس الاتحاد الأوروبي وقتئذ حاليا، ببيان أفجعنا

جميعا عندما أعطت فيه الحق لإسرائيل أن تقتل وتسفك الدماء وتسحق العظام بدعوى أنها في موقف الدفاع عن نفسها!

.. وما كدنا نفيق من هذه الصدمة حتى خرجت علينا لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة في جنيف بمعارضة قوية لفكرة إرسال وفد لتقصي الحقائق في جرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

وما كدنا نفيق من هذه الصدمة الثانية حتى استقبلت رؤوسنا العربية صدمة ثالثة عندما أكد الاتحاد الأوروبي تمسكه بمبدأ ترفيع مستوى العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع إسرائيل، لافتاً إلى مؤكدا أن الحرب على غزة قد تؤجل المباحثات في هذا الشأن لكنها لن تلغيه..!

.. هنا يتعين علينا أن نستحضر ابن خلدون مرة ثانية وأن نستوعب الحجة التي دفع بها الفرنسيون الثلاثة.. (برنار كوشنير، وميشيل روكار، وميشيل جوبير) وهي الحجة الخاصة بما يسمي بمقتضيات السياسة.. فالثابت عملا أن هذه الحجة ذاتها هي التي جعلت أوربا تعطينا في السابق من طرف اللسان حلاوة، بينما لا تعطي إسرائيل إلا مواقف عملية في أرض الواقع.. ومقتضيات السياسة أيضا، هي التي جعلت الاتحاد الأوروبي لم يعد يهتم بإصدار بيانات (لطيفة) تمتص الغضب العربي، مفضلا أن يعلن عن رأيه بوضوح وهو مساندة إسرائيل وتأييدها وإعطائها المكانة التي تريدها داخل أجهزة الاتحاد الأوروبي.. الأعجب والأغرب أننا لا نريد أن نقرأ هذه الحقائق ونعاند أنفسنا بالإصرار على أن نرى في أوروبا الصديق، والجار.. وهو ما ليس صحيحاً!.

الغمامة الإسرائيلية وتفكيك العالم العربي

شاق على المرء أن يرصد ظاهرة مؤلمة هي أننا – في المنطقة العربية – لم نعد نرى العالم "والأشياء من حولنا إلا من خلال "غمامة إسرائيلية"، ضالة ومضللة.. توردنا جميعا – المهالك لكنها – في ذات الوقت – تضمن لإسرائيل السطوة والنفوذ.. والمكان الرفيع! والأمثلة على ذلك كثيرة وموجعة في آن واحد.

– فها هو العقل السياسي العربي ظل لعقود – طويلة – أسير قناعة خاطئة مؤداها أن الوصول إلى قلب أمريكا يبدأ بقلب إسرائيل.. والإنصاف يقضي بالقول أن هذه القناعة إذا كانت صالحة في فترات سابقة فلم تعد كذلك مع الرئيس الأمريكي باراك أوباما.. ومن يتأمل خطابه القصير "١٩ دقيقة فقط"، الذي خاطب فيه الأمة الأمريكية والعالم في حفل تسلمه السلطة فى عام ٢٠٠٩ سيجد أن الرجل تحدث عن بناء أمريكا جديدة، وعن رغبته في إقامة علاقات مع العالم الإسلامي عبر الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة.. وفي ظني أنها فرصة مواتية للجانب العربي كي يبدأ صفحة جديدة مع أمريكا – أوباما.. فلقد مضى – إلى غير رجعة – خطاب الغش والتدليس والنفاق والأكاذيب الذي برع فيه الرئيس السابق جورج دبليو بوش ورفاقه من المحافظين الجدد، والذي استحق لقب "اكذب" رئيس أمريكي على مر العصور.. وحتى الآن لا يوجد مبرر لكي يكون أوباما "كذابا" مثل سابقه وقد يكون العكس هو الصحيح، بمعنى إنه سيحرص على أن يفي بوعوده والالتزام بكل كلمة وصفها بنفسه في برنامجه الانتخابي، لذلك كان الرجل واقعياً عندما كرر في أكثر من مناسبة اهتمامه بمتوسطي الدخل، وتحسين أحوال فقراء أمريكا، والبحث عن حلول سريعة للبطالة التي تنخر عظام شباب أمريكا كالسوس.. ومواجهة تداعيات الأزمة المالية التي أصبحت بين عشية وضحاها أزمة اقتصادية عالمية.. إذن بات يتعين على العالم العربي أن يدرك أنه يتعامل مع إنسان جديد "أوباما"، يفسح مجالا للقيم الأخلاقية "بما لها من صدقيّة والتزام" في

السياسة، صحيح إن المصلحة هي لغة السياسة الأولى لكن ذلك لا يعني أن المصلحة تتضاد وتتعارض دائما مع الأخلاق.

والأهم أيضا – من وجهة نظري- أن يغير العرب منهجهم في التعاطي سياسيا مع أمريكا، لأن الانتظار كي يظهر لنا نظام دولي أكثر عدلا سيعني أننا سوف ننتظر أحقابا زمنية طويلة.. وانتظار أن تأتي قيادة أمريكية غير منحازة لإسرائيل سيعني أيضا أننا ربما ننتظر ألف عام أخرى.. وهنا فإن الرؤية العربية الصحيحة يجب أن تتحرر من الغمامة الإسرائيلية التي تضعها على عيوننا ونحن نتعامل مع العالم الخارجي.. فأمريكا من حقها أن تقيم علاقات ودودة مع إسرائيل أو غيرها من الدول لكن هذا لا يمنع من أن نبني جسورا مع أمريكا عبر إداراتها المتلاحقة.. بكلمة أخرى ليس بمقدورنا أن نفرض على أمريكا كيف تتعامل مع الآخرين لكن بوسعنا أن نرسم من منظور الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة ملامح علاقتها بنا.

المثال الثاني: إذا بحثنا وراء كل المشاريع التي تهطل على المنطقة العربية بين وقت وآخر مثل الشرق الأوسط الكبير، أو الشرق الأوسط الموسع أو الشرق الأوسط وشمال إفريقيا سنكتشف أنها صور معدلة لمشروع إسرائيلي باسم الشرق الأوسط الجديد الذى شرحه شرحا وافيا في أوائل تسعينيات القرن الماضي، شيمون بيريز في كتاب له – يحمل نفس العنوان، والثابت عملا أن إسرائيل هي المستفيد الأول من كل هذه المشاريع التي تستهدف "تذويب" المنطقة العربية في محيط أوسع يبدأ من اسلام أباد في باكستان وينتهي في الرباط بالمغرب.

وليس من شك في أن أمريكا وإسرائيل قد اجتمعت "إرادتها" على تفكيك العالم العربي حتى أصبح الحديث عن أمة عربية واحدة أشبه بأضغاث الأحلام.

وكلنا يذكر أن المصطلحات والمفاهيم التي نشأنا عليها والخاصة بالفكر العروبي مثل العالم العربي، أو الأمة العربية أو القومية العربية أو العمل العربي المشترك أو الفكر القومي.. اختفت "أو كادت" من حياتنا لتحل محلها مصطلحات أخرى من نوع المنطقة العربية أو الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا أو دول جنوب المتوسط.

ناهيك عن نجاح أمريكا وإسرائيل في تكريس "القطرية" بمعنى تكبير صورة "القطر" على حساب "الإقليم" وتغييب "أو قتل" الإحساس بالانتماء إلى المحيط العربي الأوسع، فليس مصادفة أن يتم استبعاد كلمة "عربية" من اسم العراق الذي أصبح اسمه الرسمي جمهورية العراق، وينصرف الشيء ذاته على أسماء أخرى مثل دولة الكويت، ودولة قطر، ومملكة البحرين، والجمهورية اللبنانية.. صحيح قد لا يكون هناك "يد" طولى للأمريكان والإسرائيليين في المسميات الأخيرة "بعكس العراق التي هدمتها أمريكا وصنعتها من جديد على الصورة التي كانت تريدها في الأصل"، لكن عملية تهميش الفكر القومي التى تكرّ كحبات المسبحة منذ سنوات وربما منذ رحيل عبد الناصر في عام ١٩٧٠، والتراكم التي تحقق في هذا الاتجاه هو الذي جعل الدول العربية تميل أو بالأحرى لا تنزعج ولا تأبه لسقوط كلمة "العربية" من أسمائها.

الأخطر هو أن تعميق الهوة بين الدول العربية الشقيقة هو "ديدن" السياستين الأمريكية والإسرائيلية.. وإذا لزم الأمر من إحداث وقيعة أو إثارة فتن ليحل الخصام والعداء "محل" الوئام والصداقة، فلا تتردد إسرائيل في فعل ذلك مئنى وثلاث ورباع لتصبح سيدة المنطقة بلا منازع، فالطموح الذي يدغدغ مشاعر قادة إسرائيل هو أن تبدأ الحقبة الإسرائيلية التي تكون فيها الدولة العربية "القائد" أما بقية الدول في المنطقة فهي "التابع".

والمؤلم أن العالم العربي قد استمرأ – أو هكذا يبدو – وضع الغمامة الإسرائيلية على عينيه فغاب عن باله أن إسرائيل تشن على العرب حروبا من كل صنف ولون، منها الحرب الإعلامية التي تديرها بكفاءة منقطعة النظير، فاخترقت – فعلا لا قولا – خطابنا السياسي وخطابنا الإعلامي على السواء.. فنجد من بين سياسيّنا من إذا تحدث ظننته إسرائيليا لأن المفردات التي يستخدمها والتوجيهات والأهداف لا تختلف كثيرا عما يدور على ألسنة قادة إسرائيل، أما عن الخطاب الإعلامي فحدث ولا حرج! إذ لا فرق بين المصطلحات التي تستخدمها الميديا الإسرائيلية عن تلك

المنتشرة عبر وسائل الميديا العربية. ومع استمرار استعمالها أصبحت مألوفة في عين وإذن المشاهد والمستمع العربي.

وهذه كارثة يتحدث عنها خبراء الإعلام العربي بوصفها "أسرلة" كاملة للمصطلحات الإعلامية، وليس يبتعد عن هذه الدوائر ما لاحظناه مكتوبا في أكثر من صحيفة عربية ويتعلق بموقف الاتحاد الأوروبي من أحداث غزة.. فلقد تحدثت عن أن الاتحاد جمّد مباحثات ترفيع مستوى العلاقات مع إسرائيل احتجاجا على عدوانها على غزة! وهو خبر خاطئ جملة وتفصيلا ولا أساس له من الصحة.. لأن واقع الحال هو أن متحدثا أوربيا صرح بأن الطرفين الأوروبي والإسرائيلي قد اتفقا على وقف هذه المباحثات بسبب الحرب الدائرة في غزة. وثمة فارق بين المعنيين (لا يغيب عن لبيب) لكن المخجل أن الميديا العربية المولعة بالحديث عما أن يكون "وليس ما هو كائن بالفعل" قد نشرت الخبر.. فبرأت به أوروبا من جريمة التواطؤ والسبب مرة أخرى، هو الغمامة التي أحكمت إسرائيل وضعها على عيوننا .. وبصائرنا فلم نعد نرى إلا ما يريده المتلاعبون بالعقول في أوروبا وأمريكا.. وإسرائيل.

لماذا يكره الغرب الإسلام؟!

..ما صدر عن الحبر الأعظم (بابا الفاتيكان) السابق بخصوص الإسلام وأثار ضجة كبرى فى أرجاء العالم الإسلامى لا يبتعد كثيرا عما صدر عن الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش وأسماه بالفاشية الإسلامية.. وكان تحدث (قبل سنوات) عن حرب صليبية ضد المسلمين..

وكان طبيعياً أن تخلق هذه التصريحات (وغيرها)أجواء مُعادية وكارهة للإسلام وأهله. ولعل أزمة الرسوم الدانمركية لم تمح بعد من الذاكرة.

الخطير فى هذه القضية ليس صدور مثل هذه (المواقف) عن رجل دين من الوزن الثقيل مثل بابا الفاتيكان، أو عن رجل سياسة من وزن رئيس أكبر دولة فى العالم، وإنما تأثير هذه الأجواء الصعبة على الجاليات العربية والإسلامية فى الخارج.

وإذا علمنا أن عدد المسلمين فى الـ ٢٥ دولة الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى هو ٢٦ مليون نسمة، وأنهم متهمون جميعاً بتهمة القيام (بأسلمة) شعوب أوروبا يكون السؤال: هل تطرد أوروبا مسلميها يوماً؟

هو (السؤال – القضية).. ورغم المبالغة التى قد ينطوى عليها هذا السؤال إلا أن مبررات طرحه كثيرة، خصوصاً فى ضوء الاتهامات التى تطارد الجاليات العربية والإسلامية فى أوروبا ليل نهار، بدءاً بالإرهاب وانتهاءً بمعاداة السامية.

وكلنا يعرف أن الأحداث الإرهابية التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (فى أمريكا) و١١ مارس ٢٠٠٤ (فى أسبانيا) و٢٥ يوليو ٢٠٠٥ (فى لندن) أوغرت صدور الأوربيين تجاه المسلمين، وبات كل من يلبس جلباباً، أو تتدلى من يده مسبحة، أو يحمل أسماء (محمد أو أحمد أو مصطفى ..) متهماً بأنه إرهابى حتى يثبت العكس!

والحق أن القراءة الأخرى للنداء الذى وجهه آرييل شارون إلى "يهود فرنسا"

يدعوهم إلى ترك وطنهم الفرنسي للعيش فى إسرائيل، يكشف ضمن ما يكشف عن مخطط يستهدف استعداء أوروبا -شعوباً وحكومات- ضد المهاجرين العرب والمسلمين، بزعم أن أوساط الجاليات الإسلامية باتت هى المناخ الصحى لتنامى معاداة السامية! ولصعوبة أن يعيش هؤلاء فى سلام جنباً إلى جنب مع يهود أوروبا تصبح المعادلة المطروحة هى: على أوروبا أن تختار بطريقة "إما.. أو" إما اليهود أو المسلمين!

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هناك غابة من القوانين المستحدثة، (نبتت شجيراتها سريعاً فى السنوات القليلة الماضية)، تضيف إجراءات جديدة لتنظيم "إقامات" المسلمين، وتضع قيوداً على الممارسات الدينية والعقائدية، لتبين لنا أن "الخناق" يضيق شيئاً فشيئاً على مسلمى أوروبا الذين باتوا يشعرون -فى بعض البلدان- بأنهم غير مرغوب فيهم.. فليس من قبيل المصادفة -مثلاً- أن تفرض بلجيكا على الأئمة المسلمين تعلم اللغة الفرنسية أو الفلامنكية، وتشترط بريطانيا الشىء نفسه (تعلم الإنجليزية) على أن تلقى خطب الجمعة بهذه اللغات.. وتضع ألمانيا قيوداً صارمة على المدارس التى تستقبل التلاميذ المسلمين، وتحذر فرنسا الطالبات المسلمات من تجاهل قانون حظر الحجاب، وتراقب أسبانيا المساجد فى المدن الكبرى والصغرى...

وعلى أية حال، ليس خافيا على أحد أن ظاهرة "الإسلاموفوبيا" -أى الخوف من الإسلام" لم تعد تخطئها العين فى أرجاء القارة العجوز، فكثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن "أسلمة أوروبا" استناداً إلى إحصاءات موثقة تؤكد أن نسبة ٢٠٪ إلى ٣٠٪ من الأوروبيين الذين تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما، ينحدرون من أصول عربية وإسلامية (أبناء الجيلين الثانى والثالث)، بل إن كلمة "الشباب" فى دولة مثل فرنسا لم تعد تعنى غير الشباب المسلم!.. والخطر الحقيقى -من وجهة النظر هذه- أنه فى ضوء معدلات المواليد الحالية التى ترجح كفة مسلمى فرنسا، فإن أغلبية السكان سيكونون مسلمين، بعد أقل من ربع قرن، بما يعنى أن فرنسا العلمانية سوف تصبح دولة إسلامية..

المحقق أن هذه "الأفكار - الهواجس" باتت تملأ الرؤوس، كما أصبحت مادة مثيرة تلوكها وسائل الميديا دون كلل أو ملل، والنتيجة الطبيعية لذلك هى أن الفجوة بين سكان أوروبا الأصليين، وبين الجاليات العربية والإسلامية زادت اتساعا، خصوصاً فى ضوء نظرية صدام الثقافات التى روج لها الأمريكى صموئيل هينتنجون وأصبحت كالسماء تظلل الجميع!

..وإذا رصدنا الأحداث التى تقع يومياً فى أوروبا، ويكون ضحاياها مسلمين أو عرباً، لتبين لنا أن معدل الكراهية أو على الأقل الخوف والحذر من المسلمين فى تنام مستمر، وتكشف عنه وقائع صغيرة، مثل ذلك الشاب المهاجر (العربى) الذى تقدم إلى وظيفة مُعلن عنها فى الجرائد الفرنسية، وتم استبعاده برغم استيفائه للشروط، وعندما تقدم مرة ثانية (لكن باسم فرنسى وليس عربياً) تم قبوله، ثم عندما انكشفت الحيلة، تم استبعاده نهائياً، فاضطر الشاب المهاجر (الذى يحمل الجنسية الفرنسية) أن يلجا إلى القضاء!

والمعروف أن ضحايا جماعة حالقى الرؤوس اليمينية المتطرفة، هم بالضرورة من العرب.. ناهيك عن حوادث نبش قبور المسلمين، والاعتداء على أبنائهم واتهامهم بالبربرية، وعدم التحضر.. وكلها مؤشرات تصب فى اتجاه اعتبار عرب أوروبا ومسلميها "شيئاً زائداً عن الحاجة".. وتضاعف الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى تعانيها أوروبا من هذا الشعور، كما تروج أبواق اليمين المتطرف أن العرب والمسلمين هم السبب المباشر لها.. وتحضرنى -فى هذا المقام- الرؤية المغلوطة التى يتحمس لها "جان مارى لوبن" زعيم حزب الجبهة الوطنية المتطرف فى فرنسا ومفادها أن فرنسا بها ما يقرب من أربعة ملايين مسلم، وتضرب البطالة -فى الوقت نفسه- نحو أربعة ملايين فرنسى قح.. ويرى لوبن أننا لو طردنا العرب والمسلمين من فرنسا، لوفرنا فرص عمل للعاطلين الفرنسيين. والحق أنها رؤية غير دقيقة ولا تخلو من مساومات سياسية يعرفها المتابعون للملف الانتخابى فى فرنسا، ناهيك عن أن معظم الوظائف التى يشغلها المهاجرون لا يسيل لها لعاب الفرنسيين الأصلاء..

أيا كان الأمر فالمحقق أن المستقبل المنظور لمسلمى أوروبا، لن يكون فى اعتقادى ورديا لأن اللوبى اليهودى سيظل لهم بالمرصاد، وليس القلق الذى عبرت عنه إسرائيل أخيراً من "سيطرة الإسلام على أوروبا وزيادة عدد المسلمين وارتباطهم بالمنظمات الإرهابية" إلا أحد أشكال هذه الحرب الخفية التى تقودها الدياسبورا اليهودية فى أوروبا..

..وأخيراً، ليس بوسع أحد إنكار أن هناك (اتجاهاً) سياسياً وفكرياً فى أوروبا وأمريكا يسعى إلى "أبلسة" الجاليات العربية والإسلامية وتصويرها على أنها (سرطان) ينخر فى عظام المجتمعات الغربية، ويجزم بأن عشرات من الجمعيات والمنظمات الإسلامية فى أوروبا شربت حتى الثمالة من أيديولوجية الإخوان المسلمين! ومن ثم فإن خطابها الدين (خصوصاً فى المساجد) يعتبر قنبلة موقوتة سوف تنفجر حتما فى الجسد الأوروبى.

... بكلمة أخيرة: إن الوجود العربى والإسلامى فى أوروبا بات مهدداً، إن لم يكن بالطرد والإقصاء فسيكون بالتحجيم والتهميش...

المهاجرون وفاتورة "الحرب الباردة":

ارتكبت أوروبا (وأمريكا) أخطاء كثيرة أدت إلى تضخم ظاهرة الإرهاب فى العالم منها أن سمحت باحتضان آلاف المتطرفين والمتشددين الذين حولوا العواصم الأوروبية الكبرى (لاحقاً) مثل باريس ولندن ومدريد إلى "جنات" فيحاء تستقبل الوافدين الجدد بالترحاب، وتقدم لهم كافة التسهيلات.. ونسيت أنه سوف ينقلب يوما السحر على الساحر، لتكتوى هذه العواصم لاحقاً بنيران الإرهاب، والشئ نفسه فعلته أمريكا التى خلقت ظاهرة أسامة بن لادن وقاعدته من عدم، فدربته وسلحته، وأنفقت على جيوشه وعندما انتهت مهمة هذا التنظيم (من وجهة نظرها) فى أفغانستان لفظته.. فرفض هذا الشاب السعودي المتمرد.. وجند نفسه وزملائه لمناطحة أمريكا وتهديدها فى الداخل والخارج..

..المؤسف أن هذه الأخطاء (الاستراتيجية) فى التفكير الغربي يدفع المهاجرون العرب والمسلمون جانياً كبيراً من فاتورتها الثقيلة.. فأصبحوا يقفون -بالجملة- وراء القضبان بتهمة الإرهاب والتطرف لا لشئ إلا لأنهم يشتركون مع أمثال (بن لادن، والظواهرى ، والزرقاوى) فى الدين وليس فى التوجه!

ومهد ذلك لظهور جماعات كارهة للعرب والمسلمين مثل: النازيون الجدد، وحالقو الرؤوس كما قويت شوكة أحزاب اليمين المتطرف التى ترى فى الوجود العرب والإسلامى فى أوروبا احتلالاً! ..وهكذا بين عشية وضحاها – أصبح مسلمو أوروبا وأمريكا فى قفص الاتهام!

ولا يكاد يمر يوم إلا ويتم اعتقال شاب فى ألمانيا، أو مجموعة من الرفاق فى فرنسا، أو عدد من الأفراد فى لندن، ومدريد وبروكسل.. للاشتباه فى تورطهم فى أعمال عنف وقتل وإرهاب وكما حامت الشبهات حول (عرب، ومسلمين) لمشاركتهم فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى أمريكا، حدث الشئ "نفسه بالنسبة لأحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ فى مدريد، فأكد رئيس الوزراء الأسبانى أن الإرهاب

الدولى الناجم عن التطرف الإسلامى هو وحده المسئول عن الهجمات التى وقعت فى بلاده وأسفرت عن مقتل ١٩١ شخصاً وإصابة المئات.. وأصبحت أذرع تنظيم القاعدة تمتد كالإخطبوط لتدرب إسلاميين متطرفين فى ماليزيا وبانكوك، وجنوب أفريقيا.. وتواصلت حملات الدهم والمباغتة للأسر العربية والإسلامية المهاجرة فى ألمانيا وإيطاليا واتسعت دوائر الشك لتشمل كل المسلمين فى استراليا..

أما هولندا، فتؤكد أن خلايا إسلامية متطرفة (نائمة) فى أراضيها وهى تتعاون (أوروبيا) لرصد التحركات، وتبادل المعلومات فى إطار استراتيجية مكافحة الإرهاب..

وكانت تفجيرات لندن التي وقعت فى صيف ٢٠٠٥ بمثابة الرصاصة الأولى فى حرب المائة عام ضد الإرهاب على حد تعبير القاضى الأوروبى المتخصص فى شئون الإرهاب (جون لوى بريجير)، والثابت (عملا) أنه برغم أن هجمات ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة كانت نقطة مفصلية (أساسية) فى استراتيجية مكافحة الإرهاب وبداية لتدشين تحالف دولى ضد هذا الخطر العالمي إلا أن أوروبا كانت تعيش هذا الهاجس قبلا، فاكتوت فرنسا بنيران الإرهاب فى عام ١٩٩٥ عندما حصدت القنابل نحو ٢٠٠ قتيل فى مترو الأنفاق الباريسي وظهرت جماعات تحمل أسماء منها خالد قلقال ورشيد رامدا (وهما فرنسيان من أصول عربية).،

وها هي أسبانيا تعانى "الإرهاب المزمن" الذى تقوده منذ سنوات "جماعة الأيتا" الانفصالية التى لا يكاد يمر يوم دون أن تسفك دماء بريئة على أيدى سفاحيها.. ثم جاءت تفجيرات ١١ مارس لتضيف جبهة أخرى من (استراتيجية المواجهة الأوروبية مع الإرهاب) هي جبهة تنظيم القاعدة.

والثابت أيضاً إن إيطاليا وألمانيا وبريطانيا ليست فى مأمن من آفة الإرهاب، التى تأخذ أشكالاً مختلفة، لكنها ترمى إلى شئ واحد هو زعزعة الأمن والاستقرار فى القارة العجوز التى تضع حاليا يدها على قلبها خوفا من أن ينفذ أسامة بن لادن وعيده بحسب ما جاء فى العرض الذى كان تقدم به حول "الهدنة المشروطة" مطالبا

الأوروبيين بعدم مهاجمة المسلمين والانسحاب من بلادهم والكف عن التدخل فى شئونهم وبرغم أن هناك من يشكك فى مصداقية هذا التهديد إلا أنه لم يعد خافيا أن قلب أوروبا أصبح "موجوعا" بل إن الحياة فيها أصبحت صعبة بسبب التشديدات الأمنية والرقابية التى تطال أماكن كثيرة (سيرجيو بيرلسكوني رئيس الوزراء الإيطالي أكد أن ١٤ ألف موقع باتت تحت مراقبة قوات الأمن الإيطالية).. وارتفعت أصوات فى عاصمة الاتحاد الأوروبى (بروكسل) تطالب بأن تمتد شبكة الدفاع الأوروبية (التى تبلغ نفقاتها نحو ١٦٠ مليار يورو) لتشمل خطة مكافحة الإرهاب فى كل أنحاء القارة.. إلا أن الخطر الأكبر –فى تقديرنا–ينصب على الملايين من أبناء الجاليات العربية والإسلامية فى أوروبا الذين أصبحوا وفق هذه الفوبيا التى انتابت الأوروبيين –مجرمين وقتلة وسفاكي دماء..

وقد أذكى نيران حالة الإسلاموفوبيا هذه أن الغرب بات يرى فى الحركات الإسلامية نوعاً من التبشير على غرار التبشير المسيحى من منطلق روح الحرب الصليبية كما تحدثت أوساط أكاديمية عن أن التاريخ الإسلامى على مدى ١٤٠٠ سنة يؤكد أن الصراعات بينه وبين الغرب لم تتوقف فى أي لحظة، بدءاً حروب الفتوحات الإسلامية الأولى مرورا بالحروب الصليبية ، وانتهاء باحتلال الغرب لدول الإسلام، ثم الصراعات الإقليمية والدولية التى ينازع الغرب عليها فى كل مكان فى العصر الراهن.

وتتحدث ذات الأوساط – عن حرب باردة (مجتمعية) بين الغرب والإسلام تكون أوروبا مسرحا لها، على أن يغذى العقل السياسى الأمريكى هذه الحرب. والواقع أن ٥٠٪ من الحروب المفروضة على كوكب الأرض فى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٩٢٩ تتعلق بالأديان، أى أنها حروب دينية طرفاها هما: المسلمون والمسيحيون وأن ١٩ إلى ٢٨ صراعاً حضاريا وقع فى التسعينات بين مسلمين وغير مسلمين وهو ما يعنى أن الإسلام – والحالة هذه – دين سياسى لأنه الدين الوحيد الذى يتحدث فى حق الحرب ويذكر فى كتابه المقدس (القرآن) ما يعرف بدار الحرب مقابل دار السلام.

ويلفت هؤلاء النظر إلى مقولة صدرت عن أحد رجال الدين المسلمين يقول فيها أن عدد المسلين فى أوروبا يبلغ ٢٦ مليون شخص، وإذا شعر هؤلاء بسوء معاملة من الحكومات الأوروبية (غير الإسلامية) فإنهم سوف يضطرون إلى النضال لأن القرآن الكريم يحثهم على ذلك ويرفض أن يكونوا مضطهدين.

وكان طبيعياً -أمام ترويج مثل هذه الأفكار الصادقة- أن ترتعد فرائص أوروبا (شعوباً وحكومات) خوفاً من العرب والمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم وداخل مجتمعاتهم.. وأصبحوا أغلبية فى عدد من الأحياء والمدن والضواحى خصوصا فى فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا.. وبلغت هذه النسبة فى بروكسل مثلاً نحو ٥٠٪ بل إن هناك مناطق تسكنها أقلية إسلامية، ثم فى سنوات قليلة تحولت إلى أغلبية.

ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدودا جديدة لأوروبا، ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية.

ويتهامس الكثيرون فى قلق مُشيرين إلى إحصائية خطيرة تقول إن هناك ٦٣ شخصا أوروبيا يعتنقون الإسلام يوميا، وتوقع البعض أنه فى خلال ٢٠ عاماً فإن دولة مثل فرنسا ستصبح جمهورية إسلامية!

الخطير فى الأمر أنه فى ضوء معدلات المواليد العربية الخصبة، فإنه من الممكن أن تصبح لدى فرنسا أغلبية مسلمة خلال ٢٥ عاماً وسيترتب على ذلك نتائج قوية فهل من الممكن أن تصبح فرنسا العلمانية دولة إسلامية حقاً؟

وعلى أية حال فإن الوضع فى فرنسا لا يختلف عنه فى أماكن أخرى فى أوروبا. فالأوروبيين قد يجدون أنفسهم فى القرن الحادى والعشرين مضطرين لتحديد ما إذا كانوا يرغبون فى الاحتفاظ بالثقافة اليهودية - المسيحية التى تمثلها الأقلية التى ينتمون إليها أم يستبدلونها بالثقافة الإسلامية التى ستمثلها الأغلبية آنذاك...